

فإنه لم ينس أن يربط عمر الدولة هذه بطبيعة الملك إذ يقول إذا استحکمت طبیعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرم». مباشرة بدأ التقہر أو كما يسميه محمد فرید بك والانحطاط، والتغالی في الزھو والترف – التغیر الذي حدث على قيادة الانکشاریة، عثمانیاً یقضي بأن يتولی السلطان بنفسه قیادة الجيش الانکشاری في كل معارکه. ومن حينه تقاuss السلاطین عن الخروج من قصورهم لقيادة الجيش. – ترك السلطان سلیمان القانونی إدارة شؤون الدولة إلى الصدر الأعظم، أصبح تقليداً في الإداره العثمانیة كانت له سلیياته الخطیرة، عزله عما یجري في الدولة إلا ما ينقل لهم من وشايات). استحداث ما وإننا إذ نتفق مع ما ذهب إليه محمد فرید بك في تركیزه على الأسباب السالفة الذکر، ننوه إلى أنه أغفل سبباً خطیراً آخر لا يقل أهمیة عن غیره، ذرورة المجد في عهد سلیمان القانونی الانحطاط مباشرة. ظروف إبرام نظام الامتیازات فھین واجه فرانسوا الأول شارل کوین (شارل الخامس) ملك النمسا وإسبانيا وهولندا وألمانيا الذي كان يحاصر فرنسه من كل الجهات، حينها أرسلت أممھ ولویز سافوا الكونت جون فرانجیباني إلى السلطان سلیمان القانونی ورجته تخليص ابنها، وهو ما أتاح الفرنse «البروز كولة قومیة خلال القرن السادس عشر، فالأسطلول الترکي في غربی البحر المتوسط كان يحمی جناح فرنse الجنوبي ضد أي هجوم يشنھ أعداؤها، مما أتاح لملوکها تركیز قوتھم في الشمال وتأمين حدود فرنse القومیة (۱). وهیئوا الفرصة لوجودھم القومي. وبعد العمل العثماني الدؤوب الحماية فرنse من عمليات التوسع التي سعى لها شارل کوین (الخامس)، وسمیت منذ ذلك الوقت بـ «نظام الامتیازات الأجنبیة». كما سمح لباقي المدن الإیطالية بالاستفاده من ذلك بهدف تشجیع التجارة الخارجية (۱۰) مع أوروبا والشرق عموماً. وحيث أن هذه المنحة السلطانية قد تطورت وتعقدت مع الوقت حتى تحولت إلى قيود تکبل السلطنة داخلیاً وخارجیاً، ودوافع منھا ونتائجھا . طبیعة بنود معاھدة الامتیازات أکثرھا إجھافاً بحق العثمانیین هي البنود الرابع والخامس والسادس والسابع. وسياسیة وقضائیة لم تکن تحلم بها أية دولة أوروبیة. فرنse أو الحكم عليهم فيها ما لم يكن مع المدعین سندات بخط المدعی عليهم أو حجة في جبهتين: أوروبا الوسطی التي تولھا هو، وسمیت منذ ذلك الوقت بـ «نظام الامتیازات الأجنبیة». كما سمح لباقي المدن الإیطالية بالاستفاده من ذلك بهدف تشجیع التجارة الخارجية (۱۰) مع أوروبا والشرق عموماً. وحيث أن هذه المنحة السلطانية قد تطورت وتعقدت مع الوقت حتى تحولت إلى قيود تکبل السلطنة داخلیاً وخارجیاً، ودوافع منھا ونتائجھا . طبیعة بنود معاھدة الامتیازات أکثرھا إجھافاً بحق العثمانیین هي البنود الرابع والخامس والسادس والسابع. وسياسیة وقضائیة لم تکن تحلم بها أية دولة أوروبیة. ومن ناحیة أخرى استخدمت من التحالفها مع فرنse ورقة رسمیة تسمح لها بصورة شرعیة بالتدخل العسكري المحاربة شارل کوین، وحتى أن عملية التجدد معاھدة الامتیازات الممنوحة لإنجلترا عام ۱۵۸۳م كانت مدروسة على أساس تحییدھا أو التحالف معھا، فالخلفاء الأوروبيون كانوا يفكرون بمصالحھم ویوحدتهم الدينیة ويخشون في الوقت نفسه من التوسع الإسلامی. فكيف إذ يناضل ضد البابا ويطالب بالوقت نفسه منھ الامتیازات نفسها التي حصل عليها وبموافقة سلطانية ۱۱ ومن ناحیة ثانية لا يمكن إغفال سعي البابا إکراماً لوحدة المسيحيین في أن يضغط على كل من شارل الخامس وفرانسوا الأول ليضعا حدأ لقتالھما بهدف أن تتحدد أوروبا من جديد ضد الإسلام (۱۷). وفي سیاق البحث عن مبررات لإبرام الامتیازات يرى أحد الدارسين بأن الدولة العثمانیة قد استفادت بتقدیم الامتیازات لفرنse وإذ أن العلاقات الوطيدة مع فرنse سوف یترتب عليها المزيد من التأثير في شؤون أوروبا الغربية، ويعترف المؤرخ الفرنسي جون بيرنجر المتخصص في تاريخ الإمبراطورية الهاپسبورجیة بأن سلیمان القانونی لم یتردد حينھا في صرف مبلغ مليون دوکة لکی یسلح أسطول خیر الدين باربروس المكلف بالدفاع عن جنوب فرنse. فرانسوا الأول من تسليح أكثر من ۲۰ سفينة وبصعوبة كبيرة (۲۰). الذي یقول فيه إن معاھدة الامتیازات ومعاھدة مساعدۃ لنتمیة فرنse عسكرياً واقتصادياً والحلولة دون وقوھا لقمة سائفة الألمانیة وإسبانيا. وهکذا من الديوان الھمايونی فرنse بعض الامتیازات التجارية التي من شأنھا تقویتها ببعض المیزات التي لم یعترف بها لغيرھا من الدول (۱). هنری الثاني ملك فرنse إلى السلطان سلیمان القانونی لم یبق لدى فرنse أي أمل في المساعدة من أي مكان آخر عدا حضرة سلطان العالم حيث أن حضرة سلطان العالم قد قدم من قبل مساعداته لمرات عديدة. ولكن یبقى أن نتسائل إذا صح ذلك مع فرنse فكيف یوافق السلطان على جعل هذه الامتیازات مفتوحة لإنجلترا ولبابا روما إن شاءوا تمتعوا بها، وهو في حرب مصیریة معھم وبالذات مع بابا روما الذي كان یساند شارل الخامس؟ هل أراد أن ینمي أعداء